حكايات مدائن: مدينة عمّان «الجزء السابع»

جولة في المعالم وتحولات الثقافة الشعبية والاقتصاد والتقنية

د. وليد احمد السيد

■ في نهاية شارع بسمان الشمالية، ثمة معالم تميزت على مدى العقود الماضية: منها مكتبة الاستقلال التي تأسست في أربعينيات القرن الماضي، ومبنى البريد المركزي أحد أبرز معالم وسط المدينة والذي كان يمثل النافذة الخارجية على العالم خارج المملكة، ومنه كان يتم إرسال الطرود الكبيرة والوثائق المستعجلة والمهمة وكذا استلامها. وفي تسعينيات القرن الماضي كان يتم مراسلة الجامعات للحصول على القبولات من هذا المبنى، ذي التاريخ الممتد العريق والذكريات المرتبطة به. وعند انعطاف المتجول تجاه اليمين مع الشارع القادم من ساحة شارع الملك فيصل، تبدأ معالم الحياة التجارية تسيح على أرصفة الشارع الفسيحة. ومع ارتفاع الشمس قليلا في سماء الوسط التاريخي للمدينة تبدأ الحركة التجارية والبشرية بالتمطي والتثاؤب بتكاسل وخمول.

-١-

مقهى السنترال (سابقا)

في الشارع القصير الممتد من طرف ساحة الملك فيصل وما بعد البريد المركزي تجاه طلوع جبل عمّان، حيث يتلوى الشارع وتتفرع منه مجموعة شبكة من الشوارع المنحدرة صعودا ثمة علامات متميزة اكتسبت شهرة وأهمية في وسط البلد. فعلى الناصية المطلة على ساحة فيصل وفي الطابق العلوي كان مقهى السنترال (والذي غدا أثرا بعد عين) وهو أحد المعالم المتميزة سابقا في وسط المدينة، وكان يمثل إطلالة من الطابق العلوي على الساحة. وبرغم أننا كصبية في الثمانينيات والتسعينيات لم نكن لندخله، لارتباط ثقافة «المقاهي» آنئذ بمفهوم «البطالة» والجلوس فيما لا يفيد، ولعب الورق، ربما أكثر من التسلية لتمتد لثقافة المقامرة المبتدئة «الساذجة» المنبوذة، وما قد يستتبعها من الجلوس، وربما الشجار، مع رفقة السوء، إلا أن المقهى بإطلالته وتراسه العلوي كان يشكل علامة بارزة تطالع القادم من جهة الجامع الحسيني شمالا تجاه الطلوع المؤدي إلى جبل القلعة والعبدلي.

-٢-

مطعم هاشم

وإلى اليمين قليلا وفي الطابق الأرضي للشارع القصير المتصل مع ساحة الملك فيصل ثمة «دخلة غير نافذة» يطالع المتجول على مدخلها لافتة خضراء كتب عليها «مطعم هاشم»، أحد مطاعم الفول والحمص الشهيرة في وسط البلد. وتمتد شهرة المطعم لعشرات السنين الماضية لموقعه ولشعبية طبق الفول والحمص محليا، حيث ارتفعت أسعاره مع موجات الغلاء المتلاحقة عبر العقود الماضية. وكان الطبق فيما مضى يبلغ حوالي سبعة قروش، ليصبح اليوم أحد الأطباق السياحية، لشهرة المحل من جهة ولتباين الشرائح الاجتماعية، السياسية على أرفع المستويات المحلية، والسياحية، التي ترددت على هذا المطعم صغير المساحة الذي يحتل فضاء الشارع غير النافذ مع خدماته المصاحبة، الشاي والفلافل. وهكذا تحول هذه المطعم، كغيره، من الثقافة الشعبية إلى السياحة الثقافية ودرجاتها الاقتصادية المرتبطة.

-٣-

طلوع الخيام

وإلى اليمين يطالع المتجول شارعا صاعدا منحدرا بشدة كبيرة يتفرع لاحقا جهة اليسار تجاه سينما الخيام (إحدى أرقى دور السينما في عمّان في السبعينيات والثمانينيات، والتي كانت مخصصة للعائلات فقط وترتادها العائلات الكبيرة آنذاك في وقت كانت بقية دور السينما الأخرى شعبوية الطابع)، وإلى اليسار كان يتلوى الشارع صعودا ذات اليمين ثم لليسار تجاه جبل اللويبدة ومستشفى لوزميلا وقلب الجبل السكني العريق بامتياز كأحد أهم جبال المدينة التقليدية ذات الطابع المعماري المتميز والحجر الوردي لبعض مبانيه السكنية الحجرية.

-٤-

دخلة مطعم فؤاد

ومقابل طلوع الخيام تقريبا يقع شارع ضيق صغير يصل مع شارع بسمان من جهته الأخرى، وفيه تقع بعض المحلات التقليدية التاريخية أشهرها مطعم صغير لا تزيد مساحته عن عشرة أمتار مربعة يقدم للمارة ساندوتشات الفلافل والحمص، يدعى مطعم فؤاد. وربما من غير الممكن أن أحد سكان المدينة لم يتذوق أحد ساندوتشاته لشهرته منذ افتتاحه عام ١٩٨٤. وفي هذا الشارع الضيق الصغير يقع محل شهير للسمك، وبجواره مدخل يقود لمطعم بالطابق العلوي يطل على الشارع الرئيس يقدم السمك المشوي. كما تنتشر محل للحلاقة قديم قدم المكان، ومحلات للخضروات الطازجة والعصير وعلى طرف الشارع محلات صغيرة للألبسة والألعاب والأقراص المدمجة.

-٥-

كشك الثقافة

وفي وسط الشارع تقريبا، وبجوار البنك العربي يقع كشك صغير لأبي علي يبيع الكتب الشعبية والأدبية والمجلات يتربع على زاوية المبنى الحجري الضخم وفي دخلة مطعم «حبيبة» الشهير للكنافة النابلسية. وبقدر ما تجد من المارة الذين يقفون أمام الكتب المتناثرة المعروضة أمام الكشك، تجد أضعاف هذا العدد يتكدسون أمام محل الكنافة انتظارا لدورهم في تذوق الكنافة النابلسية الشهيرة، قبل أن يحمل أحدهم صحنه ليلتهم ما فيه بجانب الواجهة الضخمة للبنك العربي، ليلقي بعدها بصحنه البلاستيكي الفارغ في سلة المهملات المجاورة التي يسكنها نحلة أو اثنتين تحومان حول الصحون الفارغة وبقايا القطر والسكر العالقة. وكشك الثقافة، والذي يعرض صورة كبيرة للملك أثناء إحدى زياراته لوسط المدينة ووقوفه أمام هذا الكشك الصغير، يحتفي بشكل مستمر بهذه الزيارة الملكية بحيث غدا أحد المعالم المتميزة في وسط المدينة التاريخي.

وعلى أطراف شارع الملك فيصل تنتشر العديد من المداخل الصغيرة التي تقود المارة إلى دخلات وشوارع فرعية تصل مع شوارع خلفية بها العديد من المعالم المهمة في وسط البلد، وتمتد محلات سوق الصاغة الشهير، والتي كانت محطة مهمة يقف عندها العرائس والمقبلون على الزواج في مرحلة التجهيزات لدخول بيت الزوجية، كما تنتشر المكتبات والأكشاك الأخرى مثل مكتبة الطليعة العلمية في دخلة مطعم جبري.

-٦-

المطاعم والسينما والفنادق الشعبية

وعلى أطراف الشارع وشارع الملك حسين تنتشر تفرعات تقود لمجموعة من المطاعم والفنادق الشعبية منها دخلة سينما عمّان حيث يقع مطعم أبو خميس الشعبي للمشويات والدجاج، وهي دخلة غير نافذة كان يوجد بها سينما شعبية مقابل مطعم للكنافة النابلسية يبدو أن حمى العولمة وانتشار الأقراص المدمجة والأفلام المقرصنة قد قضى تماما على مستقبل معظم السينما الشعبية التي كانت رائجة في السبعينيات والثمانينيات بما تعرضه من أفلام الكاراتيه وبخاصة أفلام بروس لي وجاكي شان التي كانت سوقا رائجة للشباب الثائر الهادر آنذاك. وفي زيارة مؤخرا للوسط التاريخ للمدينة لاستكشاف معالمها العمرانية دخلت مع صديق معماري لمعاينة سوق ماضي التجاري المتفرع من دخلة البنك العربي طالعنا الشارع الخلفي وقد كادت أن تموت الحياة التجارية والترفيهية فيه، كما طالعنا مبنى سينما الحسين الشاهق وقد علا جدرانه النسيان والقدم والهجر بعد أن اقفلت دار السينما الشعبية هذه تماما. والغريب أن هذا الشارع كان المرور فيه قبل ثلاثة عقود من الزمن يكاد يكون مستحيلا إذ يغلق أمام جموع مرتادي تلك السينما تحديدا الذين كانوا يتكدسون أمامها انتظارا للدخول بشكل ملفت للنظر. ذات المشهد طالعته في مطلع التسعينيات أمام إحدى دور العرض في شارع بقلب القاهرة على أثر افتتاح فيلم الجميلة والوحش الذي أنتجه والت ديزني. واللافت أنه لم يتم هجر ثقافة ارتياد دور السينما محليا، لكن يبدو أن الثقافة الشعبية قد تحولت إلى ثقافة «نخبوية» ذات توجهات غربية بتحول دور السينما من الوسط التاريخي للمدينة إلى دور سينما في عمّان الغربية تعرض أفلاما «غير شعبية» من أحدث إصدارات هوليوود بما لا يشكل جذبا للثقافة الشعبية ومرتادي دور السينما في وسط البلد حيث كانت تشيع الأفلام الصينية والهندية التي راجت بشكل كبير في السبعينيات والثمانينيات.

من المهم الإشارة هنا إلى أن الثقافة الشعبية، وللأسف، كانت دوما مرتبطة بنظرة، وربما ممارسات، سلبية انعكست على طبيعة ارتياد الأماكن الترفيهية كالسينما والمقاهي في السابق بحيث كان يعد مجرد دخول مثل هذه الأماكن من المحرمات – ربما لطبيعة الفئات التي ترتادها من جهة وربما لطبيعة المجتمع المحافظة التي توجه الفرد في عصر لم يكن هناك انفتاح على العولمة والعالم الثقافي من جهة أخرى. وربما كان لهذه النظرة المحقة ما يبررها، إذ تغرق هذه المعالم في أدران وتراكمات من انعكاسات نمطية وسلوكيات تراكمية تجعل من هذه الأماكن للثقافة الشعبية ارتباطات فردية سلوكية أكثر من قبولات جمعية على المستوى العام بما يمكن ان يقدمها كمعالم ثقافية، كمقاهي ودور سينما، أو كتمظهرات وإفرازات ثقافية شعبية مقبولة في المجتمع المحلي المحافظ.

هذا التحول من الثقافة الشعبية إلى الثقافة الغربية النخبوية انعكس بشكل مباشر على الطبيعة العمرانية لوسط المدينة التاريخي بحيث أصبحت دور السينما والمطاعم الشعبية وحتى الاسواق المحلية، ومنها سوق ماضي التجاري من تصميم المعماري راسم بدران، محور نقلة تجارية وشعبوية ثقافية من الوسط التاريخي الذي كان هو الأصل يوما ليصبح المركز هو عمّان الغربية، ثقافيا وعمرانيا. ولذلك فقد بقيت بقية من حياة تجارية وترفيهية ربما يمثلها بعض المطاعم القديمة ذات السمعة الكبيرة مثل مطعم القدس أو جبري والتي نجحت في إنشاء فروع لها في عمّان الغربية بما ضمن أن تظل لها سمعة تجارية وأن يظل أصلها القديم الذي نشات منه وسط المدينة التقليدي حيا على مدى العقود – وإن تحولت هذه السمعة إلى علاقة بالسياحة الثقافية بشكل أو بآخر.

رصيف شارع الملك فيصل

على رصيف الشارع الأيمن تنتشر معروضات المحال التجارية المجاورة. تتدلى الكوفيات الحمراء والملونة والملابس والأقمشة متنوعة التصاميم والألوان على طرف الرصيف الأيمن فيما تمتد المعروضات والسلع أمام واجهات المحلات الخارجية: هذه أواني نحاسية، وتلك مصوغات تقليدية وبعض ألعاب الأطفال والأقراص المدمجة لأفلام الكرتون للأطفال وسواها. وبها يتحول رصيف الشارع إلى «معرض» حي ممتد عبر الشارع ومعه يطل من خلاله بين الفينة والفينة وجه البائعين من أبواب محلاتهم يرقبون المارة بشغف، يرمونهم بنظرات فاحصة مع شيء من الفضول، والتردد، وأحيانا الجرأة بدعوتهم للدخول ومعاينة بضاعة المحل. ويبدو أن ظلال الأزمات الاقتصادية قد باتت ترمي بنفسها على واقع الحياة التجارية وسلوكيات التجار ذاتهم، فقد كان فيما مضى قبل عقدين على الأقل من الشائع أن يدعوك صاحب المحل بإلحاح للدخول والتفرج على البضائع ومعاينها، كمحاولة منه لاستقطاب الزبائن حتى ولو لم تنته تلك المحاولة نهاية سعيدة كما في العديد من المرات، وعلى الأغلب كانت تتم مناورات كمناورة القط والفأر بين البائع والمشتري حيث ينسحب الأخير من المحل ببطء بعد أن يعلن سعرا معينا للسلعة فيما قد يتظاهر الأول بأن هذا السعر ضئيل «ومش حتوفي معه»، لتبدأ عملية «شد وجذب – وتراخي وانسحاب» بين الإثنين كعملية مقايضة تاريخية شاعت في محلات وسط البلد التاريخي. وفي بعض الأحايين كانت دعوة أصحاب المحلات تبدو «مزعجة» وأحيانا «منفرة» لبعض المشترين لدرجة الالحاح التي يبديها البائع. لكنها مهما بدت مزعجة، فلا مجال للمقارنة بينها وبين «شطارة» التجار على أبواب سوق الحميدية في دمشق، بلسانهم الحلو وأسلوبهم التجاري المتميز في جذب الزبائن من الرواق التجاري الكبير الممتد على طول البازار قبل أن ينتهي المشتري بين «براثن البائع» وفي عرينه! أو كما يجري في خان الخليلي مثلا في قلب القاهرة الفاطمية بجانب مسجد الحسين، حيث تنتشر البضائع التقليدية المغرية، والتي تكون مجالا للجذب السياحي خاصة. وبالرغم أن عملية «استقطاب» وجذب المارة المشترين المحتملين كانت تتم بحرارة ودون يأس فيما مضى قبل عقدين على الأقل، إلا أنه يبدو أنها قد «فترت» أو باتت تميل للتلاشي مع ضعف القدرة الشرائية للمارة عموما في الآونة الأخيرة بفعل الضربات الاقتصادية المتلاحقة التي ضربت قلب جيوب الناس، بحيث يبدو أن بعض البائعين عندهم القدرة على قراءة وجوه، أو ربما «جيوب» المارة ومعرفة طبيعة النهاية التي ستؤول لها محاولة «إيقاع» بعضهم في حبائل «تجارتهم» ومحلهم الصغير المتكدس بالبضائع. ومن الملفت في هذا المجال أن واجهات المحل قد باتت فعلا معرضا رائعا متنوع الألوان تنتشر خارجه وعلى مداخل الأزقة الصغيرة التي تصل بين شارع الملك فيصل وبين شارع بسمان الكثير من «التماثيل» التي تلبس الثياب الملونة وجميلة الصناعة والتكوين الزخرفي التقليدية للنساء خاصة. وهذه تبدو كمحاولة للدعوة الصامتة، ربما للسياح قبل سكان المدينة، وبخاصة مع وجود الكثير من المشغولات النحاسية والعناصر والسلع السياحية.

على هذه الأرصفة، وفي هذا الشارع تكاد تتبين قلة قليلة جدا من السياح، يمشون أزواجا: هذا زوج من السياح يمشيان الهوينا بتؤدة، وبشيء من الترنح، يرميان بصريهما يمنة ويسرة. تكاد ترى في محياهما شيء من الضياع، والحيرة، وربما بعض الترقب، والتفحص، وأحيانا الفضول. في مكان آخر ترى زوجين آخرين كهلين وقد بدا التعب والاعياء على وجهيهما العتيقين المحمرين تحت القبعات الغربية، يبدو عليهما الغربة أو الاستغراب المتراكم بفعل القراءات الثقافية المتتابعة للجرعات الهائلة التي تبثها البيئة المحيطة، المبنية والاجتماعية سواء بسواء.

على أرصفة الشارع الفسيحة تنتشر المشيات المترنحة، البطيئة، المتمهلة (على النقيض من طبيعة السير الهادرة والحركة العاجلة السريعة في بعض شوارع أوروبا كلندن مثلا حيث تشيع المشيات السريعة، للأوروبيين طبعا. ولذلك يسهل تمييز المشيات العربية في شوارع أوروبا للتباين الهائل بين الإثنتين – وربما تعمل المشيات الأخيرة مثل كوابح للسيل الأوروبي الجارف في الشوارع الرئيسة). ولذلك فلم يكن من العجيب أن يكون الأوروبيون من أسرع سكان العالم مشيا في شوارعهم الرئيسة، على عكس المشية المتثاقلة في بعض الشوارع العربية – إن كانت هناك بقية باقية من «المشي» أصلا مع وجود أكثر من سيارة خاصة لكل بيت بغض النظر عن الحالة الاقتصادية، هذا إن لم نتطرق للمقتنيات الخاصة كالهواتف النقالة مثلا، إذ بات من غير المألوف أن لا يكون عند الفرد العربي الواحد أكثر من هاتف نقال، بصرف النظر أيضا عن الفئة العمرية. وفي هذا المجال، فإن من المخجل فعلا أن تشيع إحصائيات عالمية قياسية في أن أكثر سكان العالم استعمالا تكنولوجيا الاتصالات ووسائل التواصل الاجتماعي المرتبطة بالتكنولوجيا هم في منطقتنا العربية – بما يشي بحالة من الخواء الحقيقي الاجتماعي كمجتمعات استهلاكية غير منتجة، يكاد يقترب وقتها، أو زمنها العلمي الثقافي، الإنتاجي عند هذه الشعوب للصفر المكعب! والغريب أن هذه التكنولوجيا، وحمى التواصل المجنونة، على التويتر والفيسبوك، قد دخلت بعض قاعات المحاضرات الجامعية، فترى طلابا يعبثون بهواتفهم النقالة خلسة وخفية – لمعرفة آخر المخترعات العلمية! أو أحدث الاكتشافات العالمية التي ستغير وجه التاريخ العربي المجيد! ولهذا فليس من الغريب أن تطالع المتجول على الأرصفة المحلات والبسطات التي تعرض أنواع الهواتف النقالة، وبطاقات شحن الهاتف وأنواعا لا حصر لها من أحدث الإصدارات، فبرغم اشتداد حمى الأزمات الاقتصادية المتلاحقة والطاحنة، تظل فكرة الاتصال الهاتفي «غير الضروري» والطويل ضرورية لإشباع الخواء وحالة من الانعزال الفردي حتى في مجتمعات كانت أصلا وحتى عهد قريب جدا «مجتمعات الجماعة» والتلاحم. والغريب والطريف معا، أنه برغم أن الهاتف النقال وجد أصلا بهدف ربط المجتمع لخدمة مصالحهم، بحيث تسهل حياتهم اليومية لحظيا، في التواصل والتلاقي وتسيير المصالح، إلا أنه أضحى وسيلة للتباعد، يختفي خلفه المختفون بمسافات متباعدة حسب الأهواء من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون مجالا لسرد القصص غير اللازمة، تاركا الفقراء أكثر فقرا، والأغنياء أصحاب الاستثمارات في مجالات الاتصالات أكثر غنى على حساب الساذجين من العامة الذين لا يحسنون استعمال تكنولوجيا التواصل هذه. وبحيث غدت ضرائب وسائل التواصل هذه مجالات للزيادة من قبل الحكومات الذكية لتكديس المزيد من الزكائب النقدية في خزينتها من عائدات اتصالات الفقراء البسطاء المبذرين فيما لا يلزم من الطحن الأجوف والقصص الساذجة التي تروى على الهواتف النقالة.

وهكذا يبدو أن العمران في الوسط التاريخي للمدينة يبث إشارات ترواح بين الثقافة الشعبية وشيوعها وارتباطها بين الديمومة والاستمرارية وبين السياحة الثقافية، كما يرواح من ناحية أخرى بين انتشار العولمة ومظاهرها والتحولات الكبيرة الثقافية والتقنية والاجتماعية الاقتصادية المرتبطة وبين قدرة بعض المعالم على التكيف مع هذه التداعيات الجديدة والحياة وبين الضمور والاضمحلال أمام هذه التحولات الجذرية غير المسبوقة. ■